المثقف الجزائري المعاصر وأزمة الإبداع الفكري

بلقناديل عبد القادر [1]

مقدمة

منذ الأصول الإغريقية للفلسفة، كان الاهتمام باللغة موضوعا مركزيا، أين أثيرت الكثير من المشكلات التي ما يزال بعضها قائما إلى يومنا هذا. يومها ظهرت عبارة فلسفة اللغة، وقد كانت تشير إلى كل فعل تأملي في القضايا العامة التي تطرحها اللغة الإنسانية من حيث هي موضوع بحث نظري. بل هنا من ذهب إلى القول بأن الموضوع يشمل كافة الأنظمة الاتصالية التي يستعملها الإنسان من حيث هو كائن ثقافي. إلا أنه ينبغي الاحتراس من تعريف فلسفة اللغة على نحو مضيق لأن "كل محاولة لحصر هذه العبارة قد تحجب خصائصها المميزة أو تقطع الطريق على أبعاد ملازمة للاشتغال على اللغة باعتبارها اختصاصا نظريا يقع على نقطة تقاطع طرق متعددة ومقاربات مختلفة فلسفية كالميتافيزيقا، الإبستمولوجيا والمنطق، أو علمية كاللسانيات والسيميائيات"[2].

لقد طرحت مشكلة اللغة على الفلسفة مباشرة عندما أخذ التفكير يتكامل باعتباره تدبرية في الحقيقة والوجود. نجد في محاورة تيتياتوس Théétète ومحاورة السوفسطائي le sophiste، قول أفلاطون Platon، بأنه عند النطق باسم وفعل داخل الجملة يسمح الأمر بقول الخطأ، وبالتالي الكلام عما هو لا وجود. منذئذ فإن تاريخ الفلسفة برمته سينطبع باستفهامات تنصب على الرابطة بين اللغة والواقع، بين اللغة والحقيقة. وقد استعيد السؤال نفسه خلال العصر الوسيط ثم المرحلة اللاسيكية إلى غاية القن العشرين.

تطرح فلسفة اللغة على نفسها عدة أسئلة، من بينها: ما ذا تكون اللغة بالضبط؟ عن أي شيء تقول وتتكلم؟ كيف ترتبط بالفكر والعقل؟ هل هي مجرد أداة تواصل؟

لقد عمد الفلاسفة لقد عمد الفلاسفة إلى اقتراح عدة إجابات، وقد ورد، مثلا، أن اللغة تقول الوجود وتتكلم عن العالم. لكن، رأى آخرون أن اللغة لا تتكلم سوى عن

1- قسم الفلسفة جامعة تلمسان

2 -Encyclopédie de la philosophe, pochothèque, p. 914.

ذواتنا نحن، عن ذاتيتنا نحن البشر، بل ذهب طرف آخر إلى الإقرار بأن اللغة لا تتكلم عن أي شيء خارجها! إنها تقول وفقط.

للإحاطة قد الإمكان بهذا التشعب ذهب عدد من المتخصصين[1] في تاريخ فلسفة اللغة والفكر اللساني إلى محاولة وضع أبعاد تحديدية يكون الهدف منها جمع شتات التصور ورفع الغموض عنه. فلفلسفة اللغة عند هؤلاء معنيين اثنين:

1-التصور الخارجي للغة

فلسفة اللغة هي كل تفلسف جاء بمناسبة اللغة، أي كل دراسة تتناول اللغة باعتبارها موضوعا "خارجيا"[2] يفترض أنه معف وأمره مفروغ منه. وهذا التصور يعطينا ثلاث دلالات متباينة:

أ-الدلالة الأولى عن التصور يجري فيها بحث العلاقة بين اللغة والفكر، أيهما أسبق في الوجود. في هذا الإطار، ظهر تيار فلسفي مثالي كامل طبع الفلسفة الفرنسية مع بداية القرن العشرين. وقد توصل فلاسفته بفضل تحليلاتهم اللغوية إلى إبطال واحدة من أهم الرؤى الميتافيزيقية اللاسيكية وهي الجهرانية le substantialisme. أثبتوا أن مقولة الجوهر ما هي سوى وهم نتج عن عملية تبلور المعنى في الكلمة المتحجرة، وعليه لا وجود لأعيان معطاة ولا أوضاع قارة كما كان يعتقد.

ب-الدلالة الثانية: هي أيضا تقوم على اعتبارات خارجية برانية، إنه تل الدراسات الحاضرة بقوة ضمن الفلسفة الألمانية خلال القرن التاسع عشر، وتتعلق بدور اللسان في تاريخ الإنسانية. في هذا الإطار لدينا فلسفة اللغة الهيجلية التي حاول روادها فهم ظاهرة تدهور اللسان عبر التاريخ. جرى تأويل هذه الحادثة بنا على أن الإنسان التاريخي يكون قد اتجه إلى تبني المنحى الاستعمالي للغة بها يفعل ويؤثر في الغير بطرقة دائمة. هذا ما أطلق عليه عبارة "تأسيس التاريخ". لوحظ هنا أنه فقط خلال حقبة ما قبل التاريخ يكون الإنسان قد أولى حقا الاهتمام باللغة بحد ذاتها، وبذل جعلها على هذا النحو تصل إلى كمالها المحايث لها.

1- Oswald Ducrot, Jean- Mari Schaffer; Nouveau vocabulaire encyclopédique des sciences de langage p. 241.
2 - Eric Grillo, la philosophie du langage, p. 4.

ج-الدلالة الثالثة: وهي ناتجة عن جملة الإيحاءات التي أثارتها الفلسفة البنيوية التي تطورت في فرنسا ابتداء من 1960، وذلك في إطار ما أطلق عليه اسم النشاط اللغوي. يعتبر الفيلسوف ميشال فوكو أبرز من تمثل هذه الرؤية وأبدع فيها من حيث هي وجه من وجوه فلسف ة اللغة المعاصرة. لقد كان هذا الفيلسوف يتساءل قائلا: "كيف لنا أن نصف ونميز المعرفة المشتركة التي تخص عصرا ما؟" لقد كان الطرح المعمول به عادة يتمثل في القيام بجمع المعلومات التي يقدمها هذا العصر عن العالم، أي جملة المعلومات حول الرؤية الكونية. إلا أن فوكو شكك في هذا الطرح عمد إلى تجنبه مؤسسا بدلا عن ذلك تصور الإيبستيمي الذي يعني ذلك التنظيم الداخلي للمعرفة، الصورة المشتركة التي تتخذها مهما كان المجال الذي تنطبق عليه. ومن خصوصيات هذا الإيبستيمي أنه متغير من عصر لآخر عن طريق تحولات متقطعة.

2 –التصور الداخلي للغة: يشير إلى طريقة أخرى ممكنة بالنسبة للفيلسوف الذي يهتم باللغة, تتمثل في إخضاعها لدراسة داخلية[1] تتناول اللغة في حد ذاتها كموضوع بحث وإستقصاء. هذا ما يطلق عليه إسم الفلسفة التحليلية. إنها فلسفة في اللغة نمت وتطرت في أوروبا خلال الثلث الأول من القرن العشرين. تحيل فلسفة اللغة بالمعنى التحليلي إلى واقعتين متباينتين هما:

أ- إنها اولا فلسفة تحليلية للغة بالمعنى الذي يهبه المنطق لكلمة التحليل , على الخصوص إنطلاقا من أعمال كل من بارتراند راسل 1872-1970 وأولى محاولات لودفيج فون فتجنشتين 1889-1951.

إنها فلسفة تستلهم الرؤية الوضعية للمعرفة , وجهت بحوثها على الخصوص نحو دلالة إسم العلم ثم شروط تحقيق القضايا باحثة عن خصائص كلية للغة إنطلاق من الملاحظة الموجهة نحو اللسان الطبيعي.

ب- إلا أن عبارة فلسفة تحليلية , تنطبق في أغلب الاحيان على تيار نمأ وتطور في إنجلترا إنطلاق من الفلسفة الثانية ل لودفيج فون فتجنشتين. قام هذا التيار على رفض المنطق

1- Ibid, p. 5

الصوري في دراسة اللغة , وقد اعاد توجيه التدبر الفكري نح اللغة المتداولة المستعملة بهدف استخراج خصوصاتها المميزة عن طريق التركيز على وظيفتها داخل عملية الاتصال.

II-قضية التأويلية

ما هي قضية التأويل ؟ لما كانت الفلسفة هي دراسة المسائل الأساسية التي قد تكون حسب كانط Kant ثلاثة رئيسية: ما في استطاعتنا معرفته؛ ما يجب علينا القيام به؛ ما في استطاعتي أن آمله.

فالملاحظ أن المسألتين، الأولى والثانية اللتان تتعلقان بمعرفة الواقع والفعل (أي التصرف) الإنسانيين، من غير المعقول فكهما عن بعض أو فصلهما عند الدراسة.

وضعت الهرمنوتيقا باعتبارها صناعة أو فن للتأويل خصوصا ما تعلق بالنصوص المقدسة والكتابات العتيقة. فالنص لا يفصح عن معناه الدفين سوى لؤلائك الذين يجاهدون في سبيل حل شفرته متجاوزين بذلك المعنى الأول لبلوغ واكتشاف المعنى المخبوء.

اليوم، تحيل هذه التأويلية إلى مواضيع شتى، الموسيقى الرسم، الغناء، والتمثيل، جميعها تأويلات لمقطوعات موسيقية تشكيلية أو مسرحية... كما أن التحليل النفسي الفرويدي يقترح هو بدوره منهجا في تأويلية الأحلام، الاضطرابات. ..على هذا تبدو التأويلية خاضعة للذاتية ومعرضة لغموض الانطباعات الشخصية المتقلبة خصوصا إذا ما قابلناها مع البرهنة والتفسيرية العلمية الموضوعية. ..

إلا أن واقع الحال، عبر نظرة أكثر انفتاحا ونقدية، يثبت لنا أن التأويلية لا تقل معقولية وتماسكا عن غيرها من الرؤى المضبوطة والمحكمة.

إن المجتمعات اليوم، إثر الأزمات المتوالية وأفول الأصنام الذي أصبح مشهدا يطال كافة المعتقدات، القيم والمقدسات... بدأت تستشعر أهمية الحاجة إلى التأويلية... إعادة النظر في. .. أو مراجعة هذه القيمة أو طلب إعمال الاجتهاد العلمي في النصوص. فما الإنسان سوى مغامر باحث عن المعنى: معنى كيانه في هذا العالم؛ معنى التاريخ الذي يتدفق به

في الزمن؛ معنى كل هذه الاكتشافات العلمية والاختراعات التكنولوجية البارعة ؛معنى العمل الذي يجب أن يقوم به...

1-التأويليات الخمسة عند غراندان:

لأننا بدأنا نشعر بالخطر لذلك لا بد من التأويلية. لا مفر من أخذ تصور التأويلية عبر وجوه شتى، هذه التي حصرها الفيلسوف الفرنسي جان غراندان Jean Grondin في خمسة[1] سياقات متباينة: التأويلية الفيلولوجية. التأويلية الفنية. التأويلية الترجمية. التأويلية القانونية. تأويلية حضورنا في العالم.

لطالما بحث الفلاسفة عن معنى العالم داخل المعرفة، وقد أكد غاليلي Galileé وديكارت Descartes أن ذلك ما يتحقق عبر العلم الرياضياتي.

إلا أن العلم يحدثنا عن كيفية سريان أشياء الطبيعة وليس عن غاياتها أو لماذا تكون على هذا النحو بالذات.

لذلك فحل شفرة العالم، الإطلاع على أسراره، جميع ذلك لأي غرض أو هدف؟ ألا يكون ذلك من أجل التغيير؟

تلك هي إذن فكرة ديكارت ولذلك يوصف بفيلسوف الحداثة. فقد كان قيامه أمام العالم قيام ذلك الذي يريد امتلاك زمام المادة لأجل تحسين ظروف حياة الإنسان. منذئذ استطاعت التقنية أخذ الريادة. لقد أصبح العلم الغربي إجرائيا انطلاقا من مشروع ديكارت. وقد كان هدفه المعرفة، التفسير، الفهم، التنبؤ والتحكم في سير الواقع برمته.

مع هيغل Hegel يميل الاهتمام بالتأويلية تجاه بعد أكثر شمولية وتجريدا وأغنى رمزية، ففي العام "روح يسري"، ويجب أن نفهم أن كل معقول واقع، وكل واقع معقول. لا شيء يستحق المعرفة عدا المطلق، الذي هو الكل. تثبت الجدلية الهيغلية كيف ينبغي التفكير بطريقة نسقيه متجاوزين التناقضات.

---

http ://www. Mapageweb- umoreal- ca/grondinj/textes-htm/interpretation. Pdf (consult 1- 23032012)

إلا أن تأويل العالم، يعني في هذا المقام، أن يظل الإنسان "متفرجا" بل إنه لعبه في يد العقل الأعظم La Raison الذي يتحايل في تحقيق مصيره. وعليه فما تسمح به تأويلية اليوم هو أن يصبح هذا الإنسان فاعلا مؤثرا في سير التاريخ.

2-اللغة والتأويلية الأنطولوجية

في عالمنا المعاصر، تحيط كلمة التأويلية بنطاق أكثر اتساعا وغنى مما كان بعينة فلاسفة العصر الحديث. لقد فتح نتشه Nietzshe المجال واسعا لتأويلية بلا نهاية، " لا وجود لأحداث، ثمة تأويلات فحسب"[1] وعليه لا يستطيع الإنسان أن يعيش من دون تأويل ولو بالقدر القليل. هذا ما يطلق عليه فلاسفة العصر "تأويلية حضورنا في العالم[2]

نالت "صورة" التأويلية هذه اهتمام الفلاسفة، مع أنها الأصعب على التحديد من بين الأخريات، فهي تطمح إلى الكونية وتريد ضم الكيان الإنساني بجميع أبعاده. إلا أن أهم خصائصها تتمثل في أنها تعترف هي بدورها أنها مجرد تأويل وبذلك فهي تكسر الحلقة الدوغمائية التي عادة ما وقع فيها فلاسفة المعرفة. فما معنى أن تكون كل رؤية عبارة عن تأويلية المعنى الأيديولوجي: كل رؤية للعالم، تكون موجهة بواسطة رهانات ومصالح.

المعنى المعرفي: ليس ثمة معرفة للعالم من دون خطاطات ذهنية مسبقة تؤسس وتقود جهازنا الإدراكي.

المعنى التاريخي: كل تأويلية للعالم هي بنت زمانها، نماذجها المعرفية وتراتبياتها القيمية.

إلا أن التأويلية اليوم، غالبا ما يجري فهمها انطلاقا من اللغة Le Langage. اللغة هي الحافظ لتأويلية بكاملها عن العالم وهي تشكل الرحم المولد لكافة التأويليات. وبهذا تكون هذه الطريقة الجديدة في التفلسف قد فرضت نفسها باعتبارها المجال – البحثي الحاسم والكوني لعملية التدبر الفلسفي.

III-المفكر الجزائري في أمثولة الحجرة الصينية.

أ- معنى التجربة الفكرية:

1- F-neitzsche; La Volonté De Puissance N°48.

2 - J. Grondin.

"التجربة الفكرية هي تجربة تتم بالكامل في الذهن , وتتعامل مع مواقف لا يمكن أن تفحص في المخبر , وتفترض أحيانا مواقف لا يمكن ضبطها ولا يمكن أن تحدث في الطبيعة. تعتبر تجارب الفكر أداة علمية وفلسفية حقيقية"[1].

في هذا الإطار لما كانت الظاهرة الإنسانية كيانا معنويا مجردا يعود في طبيعته للتفكير الرمزي, كثيرا ما ذهب الفلاسفة والعلماء إلى تشييد هذه التجارب الفكرية لتأويل وفهم هذا النوع من الظواهر. ومن أشهر تجارب الفكر في التاريخ لدينا تجربة الكهف لأفلاطون التي يلقي فيها بظلال الشك على معارفنا الحسية بالأشياء والأحداث , وتجربة ديكارت عن الجني الخبيث الذي يعبث بعقولنا ويرينا الباطل حقا ولدينا كذلك تجربة ابن سينا عن الإنسان المعلق في الفضاء لإثبات وجود النفس وجوهريتها وبالتالي خلودها ,و هناك تجارب فكر أخرى شهيرة لكل من جون لوك وغاليليو وسبنسر وشرودنجر وحتى أينشتاين.

"تخيل الفيلسوف الأمريكي المعاصر جون سيرل أن شخصا يسكن حجرة مغلقة وبين الفينة والأخرى تسرب له وريقة كتب عليها علامات مخربشة. يجري إدخال هذه الوريقة عبر فتحة في جدار الحجرة. يوجد بين يدي الشخص داخل الحجرة كتاب عبارة عن دليل, وظيفته أن يترجم له تلك الخربشات الواردة ويوجهه إلى كتابة الخربشات الملائمة كرد يقوم الشخص بإصداره إلى خارج الحجرة. بشرط إتباع التعاليم المسجلة في الدليل بدقة متناهية.لكن ماذا يكون الأمر لو علمنا أن الأشخاص خارج الحجرة هم علماء صينيون يعرفون لغتهم جيدا ولما تصلهم الوريقات الصادرة من داخل الحجرة يقرؤون الإجابات فيجدونها صحيحة تماما سيتصورن حتما أن الشخص الساكن بداخل الحجرة يعرف تماما اللغة الصينية ويفهم المطلوب وبالتالي يقدم الإجابة... إلا أن الواقع يقول بأن الشخص هناك لا يعرف شيئا عن هذه اللغة ولم يكن ليفهم المعلومات الواردة إليه وكل ما قام به هو أنه اتبع إرشادات الدليل بلا تفكير..."[2]

---

1 - عادل مصطفى، صوت الأعماق ص 18.

2 -المرجع نفسه، ص 19. ويمكن أيضا مراجعة كتاب "الشعور"، ص 96. وكتاب "الفلسفة ببساطة" ص 296.

"تظهر لنا هذه التجربة أن شخصا ما يمكن أن يبدو ذكيا وهو غير ذكي ويبدو فاهما وهو لا يفهم شيئا ويبدو محاورا وهو لا يحاور. ونحو في حياتنا الخاصة كثير ا ما نتظاهر بسمات أو قدرات ذهنية لا نمتلكها في واقع الأمر ونسلك كما لو كنا نعرف ونحن لا نعرف. فالسلوك الظاهر قد يخفي الجهل ويواري الأمية وراء قناع صفيق"[1].

في ثقافتنا الجزائرية المعاصرة أصبح داء التظاهر مستفحلا وكأن الجمع يعيش أمثولة الحجرة الصينية من حيث لا يعلمون ونحن نصادف ذلك في صورته الكاريكاتورية لدى زمرة من كتابنا الأميين ,أي الذين لا يقرؤون غير أنهم يكتبون كيف كان ذلك ؟ إنها الحجرة الصينية. إن كتابنا الأميين لا يكتبون حقا بل يتقمصون شخصية الكتاب الحقيقين ويلوكون أساليبهم ويقلدون ما يتصورون أنه حال الكتابة ما يشبه أن تكون ولا يتورعون فقرات برمتها من بطون الكتب لا صلة لها بموضوعهم... ليموهوا بها على هزالهم وفقر مادتهم. وتعمدون إقحام أسماء مذاهب كبيرة وأسماء أعلام جهيرة حتى يوهموا القارئ أنهم يلمون بهذه المذاهب ويعرفون هؤلاء الأعلام فلا يفرغ القارئ البريء من قراءتهم إلا وقد وقر في ظنه أن هذا الدعي أو ذاك لابد أن يكون حبرا لا هم له إلا العلم ولا شغل له إلا التحصيل وهو لا يدري أن صاحبنا الكاتب أمي جهول لا يقرئ ولا يعرف... ولكنها بركة الحجرة الصينية.

ب- التفكير المزيف: لقد تعمدنا نقل هذه الفقرة بكاملها من دون تصرف أو تحليل لأنها واضحة في رسالتها بينة في مضمونها هذا هو حال الفكر والمفكرين في الأوطان العربية وفي الجزائر على نحو خاص البلد الذي بعد خمسين سنة بعد الاستقلال لم يستقر له وضع ثقافي ولم يستقم له فكر مميز فما هي الأسباب التي جعلت أجيالا من الجامعيين الجزائريين ضحايا لهذه المكيدة الرمزية أو الفخ الأثيري؟ وهل من الممكن العمل على إخراجهم من الحجرة الصينية كما عمل أفلاطون عل إخراج أسرى الكهف إلى النور ؟

جـ- اللغة والكتابة: "لاشك إن اللغة هي السلطة الرمزية في كل دولة ومجتمع, فباللغة يتم التهميش والإقصاء وبواسطتها يتم الانتقاء وتحديد قنوات الترقية الاجتماعية, وباللغة تتم المراقبة الاجتماعية والسياسية وعن طريقها تبنى الإستراتيجيات التعليمية

1 -عادل مصطفى، صوت الأعماق، ص 22.

الفردية والعائلية والمجتمعية. وإذا سلمنا بذلك فإن اللغة هي أيضا أداة قمع وعنف تستعملها الأطراف المتنازعة حسب المصلحة السياسية والاقتصادية. إن السيطرة والهيمنة بين الفئات الاجتماعية تتحقق عن طريق اللغة والمصالحة المجتمعية وحتى الوطنية هي أولا وأساسا لغوية"[1].

بناء عليه فالذات شبه المفكرة , المحتجزة من حيث لا تدري داخل الحجرة الصينية غالبا ما تكون جاهلة بأي لسان من الألسن المكتوبة إنها ذات منضبطة بواسطة بيداغوجية بافلوفية مبرمجة على أسلوب المنعكس الشرطي تحفظ تعليمات وتستعيدها كما وردت لذلك عادة ما نجد هؤلاء لا يعرفون من العربية سوى القشور وبالكاد شيئا من الألسن الأجنبية فقط الشفوي منها.

وبذلك سرعان ما تستسلم هذه الذات للبرامج المفروضة عليها فتلغي الأنا ألتدبري المفكر فيها لصالح العقل الحسابي الذي يحول كل شيء إلى أرقام وكميات. وعندما ينعدم البعد التأويلي في اللغة يتصطح السلوك فتصبح الذات آلة في قبضة السلطة تفعل بها ما تشاء.

ومن الأسباب أيضا الجهل بأسرار الكتابة ليس الكتابة بمعنى نسخ الكلمات أو الجمل على الورق أو الشاشة "إنما الكتابة باعتبارها لسانا خاصا فإذا كانت المشافهة تحدث كيفما اتفق وفي أي وقت كان فإن الكتابة لا... لا نكتب كيفما كان لا نكتب في أي وقت كان التواصل المكتوب"[2] هو تواصل متباين, متماسف ومراقب.

د-الصراع المابينذاتي: لا يعرف أسير الحجرة الصينية أهمية الغير وقيمته في ذاته. لا يعرف أن هذا الآخر جزء لا يتجزء من كيانه حتى وإن كان حيوانا أو محيطا بيئيا. .. مفكرنا المبرمج لا يدرك أمامه سوى الذات النقيض لذلك فهو على الدوام في حالة إستنفار كل مايحيط به يهدد كيانه ويشكل خطرا عليه لذلك تجده يضاعف التروس ويرفع الأسوار بالشهادات والتظاهرات والحروب الوهمية والتأليفات الفقاعية.

---

1 - مصطفى ماضي، النخبة والمسألة اللغوية في الجزائر، ص10.

2 -G. Vigner; Ecrire, p 14.

دراسات تاريخية